

"وحي القلم" لمصطفى صادق الرافعي ومكانته الأدبية

الأستاذ الدكتور الحافظ عبدالرحيم

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بهاء الدين زكريا ملتان

السيد مقبل حسين

باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بهاء الدين زكريا.

ABSTRACT

In this article, a renowned Islamic literary figure of modern Arabic literature Mustafa Sadiq-al-rafeyi's brief life sketch and an introduction to his book Wahi-ul-Kalam have been given. This book is considered as a masterpiece in Arabic literature. This book reflects his literary trait. This book comprises of Rafeyi's stories, articles, essays and letters in three separate volumes. He has presented his thoughts, feelings, emotions and observations in a beautiful and elevated literary style particularly. In one of his essays, he has portrayed issue of Palastine and discussed its importance and significance for the Muslim ummah in a beautiful manner.

الأدب هو ما يتحلَّى به الإنسان من صفاتٍ وأخلاقٍ تعود عليه في مجتمعه بالاحترام والتقدير والأدب العربي هو مجموعة الآثار الشعرية والنثرية التي جادت بها قرائح العرب في شتَّى أقطارهم وأزمانهم وفي شتَّى الأقطار الأخرى التي كانوا فيها فاتحين أو مغتربين، وذلك منذ الجاهلية الثانية إلى يومنا هذا وفي عصر النهضة الحديثة ظهر عدد كبير من الأدباء والكتّاب منهم مصطفى صادق الرافعي الذي هو الأديب الأروع والشاعر

الشاعر المبدع مصري من أصل لبناني و تتميز مقالاته وقصصه بالخصائص الأدبية والعقلية والنفسية، كما تتميز بوضوح تام في الأسلوب والموضوع. وحي القلم للرافعي من نتاجه الأدبي والفكري واستطاع مؤلفه خلال فترة حياته الأدبية التي تربو على خمس وثلاثين سنة إنتاج مجموعة كبيرة ومهمة من الدواوين والكتب أصبحت علامات متميزة في ساحة تاريخ الأدب العربي.

نبذة مختصرة عن حياة الرافعي:

مصطفى صادق بن عبدالرازق بن محمد سعيد بن احمد بن عبدالقادر الرافعي ولد في "بهتيم" من قرى مديرية القليوبية بمنزل والد أمه سنة ١٨٨٠م بمطابق ١٢٩٧هـ (١) كان والد الرافعي هو الشيخ عبدالرازق الرافعي الذي تولى منصب القضاء الشرعي في كثير من أقاليم مصر و كان آخر عمل له هو رئاسة محكمة طنطا الشرعية. أما والدة الرافعي فكانت سورية الأصل كآبيه وكان أبوها الشيخ الطوخي وهو تاجر تسير قوافله بالتجارة بين مصر و شام إن نسب أسرة الرافعي يمتد إلى عمر بن عبدالله بن عمر بن الخطاب وكان العمل الرئيسي لرجال أسرة الرافعي هو القضاء الشرعي حتى وصل الأمر إلى الحد الذي اجتمع في أسرة الرافعي أربعون قاضياً في مختلف المحاكم الشرعية المصرية في وقت واحد. (٢)

تزوج الرافعي في الرابعة والعشرين من أخت صديقه الأديب الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان وصاحب أفضل شرح لديوان المتنبي وأنجب الرافعي من زواجه عشرة أبناء. (٣)

ثقافته ووظيفته

دخل الرافعي المدرسة الابتدائية ونال شهادتها ثم أصيب بمرض يقال إنه التيفود أقعده عدة شهور في سريره وخرج من هذا المرض مصاباً

في أذنيه وظل المرض يزيد عليه عاماً بعد عام حتى وصل إلى الثلاثين من عمره وقد فقد سمعه بصورة نهائية ولم يحصل الرافعي في تعليمه النظامي على أكثر من الشهادة الابتدائية.

فمعنى ذلك أن الرافعي كان مثل العقاد في تعليمه فكلاهما لم يحصل على شهادة غير الشهادة الابتدائية كذلك كان الرافعي مثل طه حسين صاحب عاهة دائمة هي فقدان البصر عند طه حسين وفقدان السمع عند الرافعي ومع ذلك فقد كان الرافعي مثل زميله العقاد و طه حسين من أصحاب الإرادة الحازمة القوية فلم يعبأ بالعقبات التي وضعتها الحياة في طريقه وإنما اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجد والإجتهد، وعلم نفسه بنفسه حتى استطاع أن يكتسب ثقافة رفيعة وضعته في الصف الأول من أدباء عصره و مفكره. (٤)

اضطره المرض إلى ترك التعليم الرسمي واستعاض عنه بمكتبة أبيه الزاخرة إذ عكف عليها حتى استوعبها وأحاط بما فيها عمل في عام ١٨٩٩م ككاتب محكمة في محكمة طخا- ثم انتقل إلى محكمة طنطا الشرعية ثم إلى المحكمة الأهلية وبقي حتى لقي وجه ربه الكريم. (٥)

أدبه:

إن الرافعي أديب ورجل الفكر الإسلامي العربي فعكف بسبب مرضه على أمهات كتب التراث العربي يقرأها ويستظهرها فصقلت ذوقه وطبعت ميوله بالطابع العربي الأصيل اتجه إلى الشعر محتذياً اتجاه البارودي في تقليد الشعراء في عصور الازدهار فنشر عام ١٩٠٢م الجزء الأول من ديوانه وقد أشاد به البارودي وبعد عام نشر الجزء الثاني وفي عام ١٩١٣م نشر الجزء الثالث تناول في قصائده جميع الأغراض التقليدية إلى

جانبا القصائد الوطنية التي تشيد بمصر (٦). إن الراجعي لم يستمر طويلاً في ميدان الشعر فقد انصرف عن الشعر إلى النثر وعندما نتوقف أمام ظاهرة انصرافه عن الشعر نجد أنه كان على حق في هذا الموقف فرغم ما أنجزه في هذا الميدان الأدبي من نجاح ورغم أنه استطاع أن يلفت الأنظار إلا أنه في الواقع لم يكن يستطيع أن يتجاوز المكانة التي وصل إليها الشعراء الكبار في عصره خاصة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم فقد أعطى هذان الشاعران التعبير عن مشاعر الناس وهمومهم في هذا الجيل. أما الراجعي فشعره لم يكن سهلاً بل كان شعراً صعباً يحتاج إلى ثقافة أدبية ولغوية عالية لكي يفهمه من يقرأه ولكي يتذوقه بعد ذلك ويستمتع به. لعل الراجعي هو من أطلق أول صرخة اعتراض على الشعر العربي التقليدي في أدبنا فقد كان يقول: "إن في الشعر العربي قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه" وهذه القيود بالفصل هي الوزن والقافية. (٧)

مؤلفاته:

الميدان الثاني الذي خرج إليه الراجعي هو ميدان الدراسات الأدبية وأهمها كان كتابه عن "تاريخ آداب العرب" وهو كتاب بالغ القيمة ولعله كان أول كتاب في موضوعه يظهر في العصر الحديث لأنه ظهر في أوائل القرن العشرين وبالتحديد سنة ١٩١١م (٨). ثم كتب كتابه "إعجاز القرآن الكريم" مركزاً فيه على أساليب الإعجاز البياني في القرآن الكريم والرد على من حاول الانتقاص من قيمته، نشر عام ١٩١٢م كتابه "حديث القمر" وهو فصول في الحب والجمال والزواج والطبيعة وله من الكتب "المساكين" وهو مجموعة خواطر وآراء حول الفقر والبؤس والحب والخير والشر. (٩) وله كذلك أعمال أخرى منها: رسائل الأحرار، والسحاب الأحمر، وكتاب "أوراق الورد" تدور كلها حول الحب والجمال والمرأة

وديوان الرافعي، مشتمل على ثلاثة أجزاء- (١٠) وفي عام ١٩٢٦م أصدر كتابه المشهور "تحت رؤية القرآن" وفيه ردٌ عنيف على كل ما جاء في كتاب الدكتور طه حسين "في الأدب الجاهلي" ثم يأتي الميدان الأخير الذي تجلت فيه عبقرية الرافعي ووصل إليه مكانته العالية في الأدب العربي المعاصر والقديم وهو مجال المقال والذي أخلص له الرافعي في الجزء الأخير من حياته وأبدع فيه إبداعاً عجيماً وهذه المقالات التي جمعها الرافعي في كتابه "وحي القلم" الذي نتحدث عنه فيما بعد. (١١)

وفاته:

توفي مصطفى صادق الرافعي في طنطا بمصر سنة ١٩٣٧م الموافق ٢٩ صفر المظفر ١٣٥٦هـ ودفن فيها بمقبرة الأسرة الرافعية في طنطا بمصر (١٢).

التعريف بكتابه "وحي القلم"

تعلق الرافعي بالتراث العربي في لغته وآدابه وتجلت فيه عبقريته ووصل إليه مكانتها العالية. وكان يكتب في ذلك المقالات المختلفة التي جمعها الرافعي في كتابه "وحي القلم".

اسم الكتاب وما اشتهر به:

والكتاب كما يشعر به عنوانه "وحي القلم" هو مجموعة فصول ومقالات وقصص من وحي القلم و فيض الخاطر في ظروف متباينة وأكثره ما كتبه لمجلة "الرسالة" بين عامي ١٩٣٤م و ١٩٣٧هـ ولكل فصل أو مقالة أو قصة من هذه المجموعة سبب أو حى إليه موضوعها وأملى عليه القول فيها عدد أجزاء الكتاب "٣" مجموع الصفحات يفوق العدد ٣٠٠

من كل جزء صفحات الكتاب ولكل فصل أو مقالة أو قصة من هذه المجموعة سبب أو حى إليه موضوعها و أملى عليه القول فيها. (١٣)
أسلوبه:

أما أسلوب الرافعي الذي اتخذه في كتابه "وحي القلم" فأنشأ فيه النفحة الأخيرة من أنفاسه والنبضة الأخيرة من قلبه والومضة الأخيرة من وجدانه هذا أول كتاب أنشأه على أسلوبه وطريقته فقد عاش الرافعي معاش يكتب لنفسه وينشر لنفسه لا يعنيه مما يكتب وينشر إلا أن يُحيل فكرة في رأسه أو لمحة في خاطره أو خفقة في قلبه إلى تعبير في لسانه أو معنى في ديوانه، على أن هذا الكتاب يجمع كل خصائص الرافعي الأدبية متميزة بوضوح. (١٤)

والرافعي عند طائفة من قراء العربية أديب عسر الهضم وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلف لا يصدر عن طبع وعند بعضهم غامضٌ معمى لا تخلص إليه النفس ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب وذوي الذوق البياني الخالص أديب الأمة العربية المسلمة يعبر بلسانها وينطق عن ذات نفسها فما يعيب عليه عائبٌ إلا من نقص في وسائله، أو كدرة في طبعه، أو لأن بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التي ينطق الرافعي بلسانها حجاباً يباعده بينه وبين ما يقرأ روحاً ومعنى فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعي ليتذوق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه فليستوثق من نفسه قبل، ويستكمل وسائله فإن اجتمعت له أدواته من اللغة والذوق البياني، وأحس إحساس النفس العربية المسلمة فيما تحبُّ وما تكره وما يخطر في أمانيتها فذوقه ذوق وحكمه حكم، وإلا فليسقط الرافعي من عداد من يقرأ لهم أو فليسقط نفسه من عداد هذه الأمة على أنه إذا حق لنا أن نرتب كتب الرافعي ترتيباً

يعين قارئه على تذوقه أو دراسة أدبه فإن ”وحي القلم“ في رأس هذا الثبت هو آخر ما أنشأ ولكنه أول ما ينبغي أن يقرأ له، وإن البدء به لتحقيق أن يعوّد قارئه أسلوب الرافعي فيسلس له صعبه وينقاد. (١٥)

يجمع هذا الكتاب كل خصائص الرافعي الأدبية متميزة بوضوح في أسلوبه كذلك يجمع كل خصائصه العقلية والنفسية متميزة بوضوح في موضوعه ففيه خُلِّقه ودينه - وفيه شبابه وعاطفته وفيه تزمته ووقاره وفيه فكاهته ومرّحه وفيه غضبه وسخطه فمن شاء أن يعرف الرافعي عرفان الرأى والفكرة والمعايشة فليعرفه في هذا الكتاب. (١٦)

أهمية الكتاب في الأدب العربي المعاصر:

ان الرافعي الأديب الأروع والشاعر الثائر المبدع صاحب الزرق الرقيق والفهم الدقيق الغواص على جواهر المعاني الضارب على أوتار مثالتها والمثاني، كما يقول محمد رشيد رضا: كتاب ”وحي القلم“ ربما هو كتاب الأدب العربي المعاصر الأول في النشر ذاع صيته واقفناه عاشقو العربية بل تمتع بمقالاته العامي قبل المثقف وكم غاب قارئه عما حوله فكأنه سكران وهو رغم ذلك بعيد عن الفحش والهجر وأن تناول مواضيع اجتماعية وأخرى عن الوصف الحب كما فيه مواضيع توضح ما التبس من حقائق الإسلام وآدابه و خلفياته و بعض جماليات القرآن. (١٧)

ينتزع من الدنيا حقائق ويرسلها ضمن نصوص صيغت بصيغة القصة التي تنزع إلى لفت نظر القاري وبأسلوب يظهر الرافعي فيه الحياة بصورة أوفى وأدق وأجمل فهو يصنع كل شيء في خاص معناه ليكشف حقائق الدنيا كشفة تحت ظاهرها الملتبس وتلك هي بحق صناعة الرافعي

الفنية الكاملة تستدرك النقص فتتمه وتتناول السرفتلعله وتلمس المقيد فتطلقه وتأخذ المطلق فتحدّه وتكشف الخيال فتظهره وترفع الحياة درجة في المعنى وتجمل الكلام كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به - والرافعي ينسج خطوط قصصه في كتابه الذي جاء ضمن ثلاثة أجزاء تنسجها بريشة فنان يحلق في عالم الوجدان فتأبى مصبوغة بوجدان الإيمان العميق تبغي البحث في خبايا وأعماق الحياة والإنسان. (١٨)

وإن في هذا الكتاب لفناً وفكراً وبياناً وإنّ فيه لمواضع تقتضى البسط والتطويل في الحديث وإن لمذاهب في الإنشاء حقيقة بالدرس والنظر.



هوامش البحث و مصادره

- ١- الزركلي ، خير الدين، الأعلام: ٢٣٥/٧ دار العلم للملايين بيروت لبنان- كحاله، عمر رضا معجم المؤلفين: ٢٥٦/١٢، دار احياء التراث العربي بيروت لبنان.
- ٢- الموقع - <http://ar.wikipedia.org> D: 5/11/09
- ٣- المصدر نفسه.
- ٤- المصدر نفسه.
- ٥- المصدر نفسه.
- ٦- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ط٢ ، ١٩٩٩ م الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ص: ٧٧/١١.
- ٧- الموقع: <http://ar.wikipedia.org> D: 5/11/09
- ٨- الموسوعة العربية العالمية: ٧٧/١١ المصدر السابق.
- ٩- المصدر نفسه.
- ١٠- معجم المؤلفين: ٢٥٧/١٤.
- ١١- المصدر نفسه: ٢٥٧/١٤.
- ١٢- المصدر نفسه ٢٥٧/١٢، المصدر السابق.
- ١٣- الرافعي ، مصطفى صادق ، وحي القلم ، دارالكتب العربي بيروت لبنان ص: ١٣/١.
- ١٤- وحي القلم: ١١/١.
- ١٥- المصدر نفسه: ١٢/١.
- ١٦- المصدر نفسه: ١٣/١.
- ١٧- الموقع <http://vb.lamst7b.net> D: 5/11/09
- ١٨- المصدر نفسه.



